كلمة سيادة المتروبوليت الياس
في منتدى «التربية أبعد من الإتجاهات الرقمية»
قاعة البشارة ٢ أيار ٢٠١٤

الإنسان إبن بيئته. قولٌ مأثور يؤكد على كون الإنسان، والطفل بشكل خاص، مخلوق يتأثر بما يحيط به، ببيئته، ويكون نتاجَ ما يتلقاه في محيطه الضيق أي العائلة التي ينشأ فيها، وفي المحيط الأوسع عنيتُ المجتمع بكل مكوّناته، من المدرسة والرفاق والمعلّمين، إلى الشارع وميدان العمل وسوق الإستهلاك...

ففي المجتمعات القديمة التي كانت ترتكز على الزراعة بشكل عام، كانت مداركُ الإنسان وحواسُه كلّها تتمركز حول الأرض ونتاجها ووسائل حراثتها وزرعها وتطويرها وما شابه. وعندما تقدّم المجتمع نحو الصناعة، راح الإنسان ينمّي قدراته بهذا الإتجاه. ومع تطوّر المجتمع وتقدّم العلم وكثرة الإختراعات وسرعتها، أصبح الإنسان يسابق نفسه ليتمكن من الإحاطة بكل ما يساعده على مجاراة عصره ومنافسة أقرانه. لكنّ الأمور كانت تسير بشكل طبيعي ناتج عن تطوّر الإنسان ونمو قدراته العقلية وإمكاناته الإبداعية. وكانت التغيّرات تحصل تدريجياً وبصورة طبيعية.

أما اليوم، فالإنسان يعيش زمن الثورة الرقمية المبنية على التطور السريع لتكنولوجيا شبكات التواصل الإجتماعي التي جعلت المعلومة سهلة المنال، ومتعددة المصادر. لكنّ كثرة المعلومات تؤدي إلى تشتت الذهن، هذا ناهيك عن عدم دقة المعلومات وعن صعوبة القدرة على التمييز بين الخبر والحقيقة.

هذا الكم الهائل من المعلومات الذي توفّره شبكات التواصل الإجتماعي يعطي المرء انطباعاً أنه

يعرف الكثير، لكنه يجهل أنّ ما يعرفه ليس بالضرورة صحيحاً ودقيقاً، وأنّ هذه المعرفة سطحية لا تقارب عمق الأمور وجوهرها ولا تغني مخزون الإنسان.

في القديم، كان الإنسانُ يلهث وراء العلم والمعرفة، ويمضي الساعات في البحث والتمحيص والتدقيق ليصل إلى الحقيقة. كان الكتابُ محطَّ اهتمام طالب العلم، وكان الأستاذُ المرشدَ والموجِّهَ والمرجع، يدلّ الطالب على طرائق البحث وسُبُلِ التحليل وكيفية اعتماد المراجع والبحث عن المصادر من أجل الوصول إلى المعلومة الصحيحة.

في هذا العصر لم يعد للكتاب منفعة في نظر معظم جيل اليوم، وحلّت الآلة محل الأستاذ، ولم يعد للتواصل الإنساني مكانة في حياة أجيالنا. لقد تغيّر نمط الحياة ولم تعد الثورة الرقمية حالةً يمكن حصرها أو ضبطها لأنها أصبحت واقعاً فرض نفسه فغيّر سلوك الناس وبدّل أنماط التواصل والتفاعل اليومي بين البشر. لقد أوجدت هذه الثورة نمطاً تواصلياً آلياً يكاد يلغي لقاء الوجه بالوجه. صارت الشاشة حاجزاً بين الوجه والوجه وعدّلت أنماطاً علائقية أساسية في الحياة العائلية والثقافية والإجتماعية والمهنية. لطالما قلنا إنّ التلفزيون قد شكّل عائقاً أمام التواصل بين أفراد العائلة لأنهم، عوض التحادث وتبادل الآراء والخبرات، أصبحت أنظارهم متجهة نحو الشاشة وتعمّقت الهوّة فيما بينهم. فما بالنا اليوم وقد أصبحت حياة الفرد مرتبطة بهاتفه النقّال الذي أصبح مصدر المعلومات وناقلها، وبواسطته يتصل بالآخرين ويتواصل معهم؟ أليس مشهداً مألوفاً لدى الجميع منظرُ أفراد يجلسون معاً لكنّ كل واحد منهم ينظر إلى شاشته الصغيرة غير آبه بمن حوله؟ للأسف لم تعد اللقيا بين الإنسان وأخيه هي المبتغى. لم يعد الإنسان يرى وجه الرب في وجه أخيه.

هل لهذا الأمر تأثير على الواقع التربوي والإجتماعي؟ أترك الإجابة عن هذا السؤال لأصحاب الإختصاص. لكنّ الجواب البديهي أنّ الشبكة العنكبوتيّة وكل ما نتج عنها أصبحت تنافس المدرسة والمعلّم لأنها أصبحت هي مصدر المعرفة. كذلك أباحت كل شيء، نافعاً كان أو ضاراً، وأتاحت عرض كل شيء على الملأ، ما يجوز وما لا يجوز، وكأنها تعرّي الإنسان الذي ارتضى أن يبسط أفكاره وما يختص به على هذه الشبكة. كما أتاحت للجميع إمكانية التعبير عن آرائهم ومناقشة آراء الآخرين والتعليق عليها ورفضها أو قبولها، كل هذا بطريقة إنفلاشية لا تعرف حدوداً لما تدّعي أنه حرية، ولا تعير احتراماً لما يسمى خصوصية الإنسان أو كرامته.

صحيحٌ أنّ الحريةَ منحةٌ من الله، ونحن نبشّر بهذا، وصحيحٌ أيضاً أنّ حرية الفكر والمعتقد والتعبير حقٌ لكل إنسان، لكنّ الصحيح أيضاً أنّ من حق أي إنسان أن لا تُنتهك حريتُه ولا تُمس كرامتُه. فحرية الواحد منا تنتهي عند حدود حرية الآخر، وإذا كان أي إنسان يرفض المس بحريته أو الإساءة إلى كرامته، فالحري به أن لا يمس حرية الغير أو يسيء إلى كرامتهم. من هنا واجب كل إنسان احترام القيم والتزام العمل بما يمليه عليه ضميره والواجب الإنساني، بغض النظر عما هو متاح له عبر الشبكة العنكبوتية وما أنتجته الثورة الرقمية من مجالات.

أمام هذه التحديات، ولأنّ مدارسنا اعتادت أن تكون رائدةً في مجال التربية والتحديث، كان لا بد من طرح موضوع التربية والثورة الرقمية من أجل حث أصحاب القرار على التنبّه وتلافي مساوئ هذه الثورة مع الإفادة من القيمة التربوية المضافة التي يمكن أن تقدّمها التكنولوجيا إذا أُحسن تثميرها. لذا كان هذا المنتدى، وقد أردناه فسحة تأمل مشتركة بين أصحاب اختصاصات متنوعة ومتكاملة، حول مفهوم التربية اليوم وما تواجهه من تحديات مترتبة أو قد تترتب بفعل تأثير هذه الثورة الرقمية، وتحديد الدور المتوخى من المدرسة، بسائر مكوّناتها، من أجل متابعة بناء وتنمية قدرات المتعلّمين، مع الأخذ بالإعتبار تحديات تربية إنسان الغد بوسائل الحاضر، آفاق الثورة الرقميّة وأضرارها، وتأثير إعلام اليوم على المتعلّمين الذين ينهلون العلم والثقافة من المدرسة، لكنهم يتلّقون كل ما يقدّمه لهم الإعلامُ المتفلّت من كل الضوابط.

ختاماً لا بد من التشديد على ضرورة الإنتقال من استهلاك المعرفة إلى إنتاجها وفق أسس تربوية ذات رؤية مستقبلية وقيم إنسانية واضحة، وعلى ضرورة تدريب جيل العصر الرقمي على أنسنة التكنولوجيا الحديثة وتحفيزه على التفاعل معها إنطلاقاً من المواهب التي سكبها الله فيه والمرتكزة على الكرامة الإنسانية والتفاعل مع الذات ومع الآخر وتعلّم قبوله كإنسان مختلف لكنه مخلوق على صورة الله ومثاله، والمرتكزة أيضاً على الحرية المسؤولة والملتزمة بالقيم الذاتية والمجتمعية، وعلى الفكر الناقد الذي يتبنّى بوعي كامل ما هو نافعٌ ومفيد، ويرمي كل ما يضر النفس والآخر.

نحن نؤمن أنّ الإنسان، كلّ إنسان فريدٌ وعزيزٌ في عينَيْ الرب، ونؤمن أنّ الحياة جهادٌ مستمر يخوضه الإنسان المؤمن من أجل الوصول إلى ملء قامة المسيح. الإنسان يجاهد من أجل بنيان نفسه، ويجاهد من أجل اكتساب المعرفة وتمثّلها لتصبح فهماً هو نتيجة خبرة الإنسان وتعاطيه مع الواقع الذي يعيشه. لكنّ المعرفة ليست تجميع معلومات خصوصاً وقد أصبحت المعلومة في أيامنا في متناول الجميع. المعرفة الحقيقية ثمرة جهاد الإنسان في عيشه اليومي وتفتيشه الدؤوب وقبوله الآخر. هي إعمال القلب في العقل، لذا من الأفضل تسميتها ثقافة لأنها تصبح جزءاً من كيان المرء لا دفقاً خارجياً ترميه وسائل التواصل الإجتماعي أمام المتلّقي ولا يمتّ إلى كيانه بصلة، ولم يُعمِلْ فيه فكرَه الناقد.

التقدّم سنّة الحياة والإنسان الذي حباه الله ذكاءً ويستعمل هذا الذكاء، لا يرفض مجاراة التقدّم والتطوّر، لكنه لا ينجرف بلا وعيٍ ولا احتراز في غياهب المجهول. وحسن التمييز من الفضائل التي بإمكان الإنسان التحلّي بها، ودور المدرسة يجب أن يتلاقى مع دور الأهل من أجل إنشاء الأجيال عليها. عسى تكون مدارسنا في طليعة المدارس التي تنشئ طلاّبها على كل فضيلةٍ تكون زاداً لهم يُضاف إلى العلم الذي تمدّهم به، والمعرفة التي تحثّهم على ابتغائها، والحقيقة التي تدفعهم دائماً إلى طلبها.